خصوصية المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس

الدكتور :عبد العزيز ناصري
أستاذ محاضر (ب) قسم العلوم الاسلامية ،جامعة أدرار.

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على سر انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس قديماً وحديثاً، وهذه ظاهرة فريدة ومتميزة تخص هذه المنطقة على غيرها من مناطق العالم الإسلامي، فنحاول التطرق إلى كيفية دخول المذهب إلى المنطقة؛ وتشبث أهلها به، ونذكر آراء المؤرخين والعلماء في ذلك، وما هو السر في تمكن مذهب مالك في هذه المنطقة وسرعة انتشاره وتفضيله على بقية المذاهب الإسلامية المعتمدة في الفقه الإسلامي كالشافعي والحنفي والحنبلي، وبروز علماء أجلاء من أبناء المنطقة في المذهب كابن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير وسحنون وابن عبد البر وغيرهم من أئمة المذهب، وما الدور الذي لعبه سلاطين المغرب وملوكه في التمكين للمذهب المالكي في بلادهم عبر التاريخ وإلى يومنا هذا، مع العلم أن المشرق العربي وغيره من بقية أقطار العالم الإسلامي؛ انتشرت به المذاهب الأخرى كالشافعي والحنفي والحنبلي على غرار المذهب المالكي.
كلمات مفتاحية: المذهب، مالك، المغرب.

Abstract : This study aims to shed light on the secret of Al-Maliki doctrine spread in the Maghreb and Al-Andalus in past and present. This is a unique and distinctive phenomenon specific to this region than other regions of the Islamic world. This paper tries to address how al-Maliki doctrine entered the region, and how their people attached to it and recall the views of historians and scientists in this, and what is the secret about enabling the Maliki doctrine in this area in addition to the quick spread of this doctrine and the preference of it than other Islamic jurisprudence such as Shafii, Hanafi and Hanbali. Besides the rise of evacuated scientists from the region in the Maliki doctrine such as Ibn Abi Zaid Al-Kairouani nicknamed "Little Malik" Sahnoun, Ibn Abd al-Barr and other Imams from different Islamic doctrines jurisprudence. Moreover, addressing the role played by the sultans and the kings of Maghreb in empowering the Maliki doctrine in their country through history to this day. Knowing that, the Middle East and other countries of Muslim world knew other doctrines such as Shafii, Hanafi and Hanbal doctrine over the Maliki doctrine.
Keywords: Doctrine, Malik, Maghreb.

مقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على المصطفى وعلى آله وأصحابه الخلفاء ومن تبع نهجهم واقتفى أما بعد: فإن المتأمل في مسيرة الفقه الإسلامي لا يلبث أن يشد انتباهه ظاهرة فريدة ومتميزة تخص المغرب الإسلامي على غيره من بقية أقطار العالم الإسلامي، وهي سيطرة المذهب المالكي في المغرب والأندلس بنطاق أوسع في هذه المنطقة على غيره من المذاهب الفقهية المعتمدة كالحنفي والشافعي والحنبلي منذ القدم وإلى يومنا هذا، فكل الدول المغاربية مثل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا تعتمده في الفقه والمعاملات والأحوال الشخصية وغيرها، وتلزم العلماء باتباعه وعدم الخروج عليه إلا للضرورة القسوة، والاهتمام بالكتب المعتمدة في المذهب المالكي كالمدونة لسحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل ومتن ابن عاشر وغيرها من الكتب والمتون والحواشي، وكلها معتمدة في هذا البلاد وتدرس على نطاق واسع في الزوايا ودور العلم وغيرها، بغض النظر عن الكتب المعتمدة في المذاهب الأخرى كالمبسوط للسرخسي في الفقه الحنفي وتحفة المحتاج لابن حجر في الفقه الشافعي والمغنى لابن قدامة في الفقه الحنبلي وغيرها، وأن تتبع الأسباب في سرعة انتشاره والتزام أهل المنطقة به يطول شرحها وتحتاج إلى بحث أوسع من هذا، مما نقدمه في هذا العرض، وقد حاول المؤرخون والباحثون استقصاء الأسباب والعوامل التي أدت إلى استقرار المذهب بالمنطقة والسر في ذلك، و كيف انتشر مذهب مالك في المغرب والأندلس على غيره من المذاهب الأربعة، وكان بعضها صائباً والبعض الآخر غير ذلك، وهذه الظاهرة التي يتميز بها المغرب الإسلامي عن سائر الأقطار الإسلامية الأخرى هي التي تدعونا إلى التساؤل عن السر وراء ذلك؟ وهذا ما نحاول التطرق له في هذه الدراسة إن شاء الله.

أولاً: حال المنطقة قبل ظهور المذهب المالكي

يرى أغلب المؤرخين أن منطقة بلاد المغرب والأندلس؛ كانتا في أغلب أيامها خارجة ومستقلة عن سلطة الدولة العباسية في بغداد؛ والتي كان مذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي، وكان متولي منصب قاضي القضاة[1] أحد أصحاب أبي حنيفة وهو: أبو يوسف صاحب كتاب (الخراج)، وهذا بعد إنشاء الدولة الأموية في الأندلس بزعامة عبد الرحمن الداخل صقر قريش؛ كما سماه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بعد عجزه عن القضاء عليه بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق؛ ومقتل آخر خليفة أموي بمصر وهو مروان بن محمد والملقب بالحمار، وتَتَبُّعِ الأمويين بالتشريد والقتل، إلى درجة أن قبورهم نبشت وأحرقت جثثهم من جديد، وبعد ذلك؛ أنفرد رجل منهم هارباً وناجياً بنفسه؛ وعبر إلى المغرب ثم الأندلس وأسس دولة قوية دامت قروناً، فبدأ الخروج واضحاً عن الخلافة في بغداد، وقد اختلف المؤرخون في المذهب السائد بالمغرب والأندلس قبل الاستقرار على مذهب مالك، فيقال: إن المذهب الحنفي كان منتشراً في القيروان ومذهب الأوزاعي في الأندلس ـ والله أعلم ـ.

ثانياً: آراء المؤرخين والعلماء في استقرار مذهب مالك في المنطقة

1 ـ ابن فرحون:

نجد ابن فرحون[2] قد ذكر في كتابه الشهير (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب) ـ أي المذهب المالكي ـ أن زيداً اللخمي الملقب بشبطون، هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، وقد تلقى العلم عن الإمام مالك مباشرة

---

[1] وهذا المنصب بمثابة وزير العدل في عصرنا الحاضر.

[2] إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري: عالم بحاث، ولد ونشأ ومات في المدينة، وهو مغربي الأصل، رحل إلى مصر والقدس والشام، وتولى القضاء بالمدينة سنة 793هـ وتوفي بها، وهو من شيوخ المالكية، له (الديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب المالكي) وغيره، ينظر: قاسم: علي سعد، " جمهرة تراجم الفقهاء المالكية "، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2002 م، ج1، ص63

في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ وكان من أكبر تلاميذه، وعده في الطبقة الأولى من أصحاب مالك، فقال: "ومن الطبقة الأولى من أصحاب مالك من الأندلس زياد، وهو أبو عبد الله بن عبد الرحمن القرطبي الملقب بشبطون، سمع من مالك الموطأ وله عنه في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد... وكان زياد أول من أدخل الأندلس موطأ مالك متفقهاً بالسماع عنه ثم تلاه يحيى بن يحيى الليثي، وكان أهل المدينة يسمون زياداً: فقيه الأندلس وكانت له إلى مالك رحلتان، وكان واحد زمانه زهداً وورعاً، وتوفي سنة ثلاث وقيل: أربع وقيل: تسع وتسعين ومائة"[1].

2 ـ الضبي:

أما صاحب البُغية فذكر أن زياد الملقب بشبطون هو أول من أدخل الأندلس فقه مالك بن أنس، وكانوا قبل ذلك على مذهب الأوزاعي، وقد تلقى العلم مباشرة على الإمام مالك ـ رحمه الله ـ، وذكر أن مذهب مالك انتشر بفضل يحي بن يحي الليثي، وقد رحل إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ وتلقى العلم مباشرة عن مالك وكان من كبار أصحابه، فقال: "يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس وقيل وسلاس أبو محمد الليثي أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصمودة، تولى بني ليث فينسب إليها، وجده كثير يكنى أبا عيسى وهو الداخل إلى الأندلس، رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع مالك بن أنس وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله بن وهب وسمع من نافع بن أبي نعيم القارئ ومن القاسم

---

[1] ابن فرحون: برهان الدين اليعمري، " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، لناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ج1، ص369 بتصرف، وينظر أيضاً ترجمته في: الحَمِيدي: محمد بن فتوح الميورقي، "جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس"، الناشر: الدار المصرية للتأليف والنشر، عام النشر: 1966 م – القاهرة، ص 384

بن عبد الله العمري وتفقه بأكابر أصحاب مالك بن أنس، بعد انتفاعه بمالك وملازمته، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس، وكان سبب ذلك فيما روى: أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه فقال قائل: قد خطر الفيل فخرجوا ولم يخرج، فقال له مالك: ما لك لم تخرج لتنظر الفيل وهو لا يكون في بلادك؟ فقال له: لم أرحل؛ لأبصر الفيل وإنما رحلت لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك، فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل الأندلس، وإليه انتهت الرئاسة بالفقه في الأندلس وبه انتشر مذهب مالك وتفقه به جماعة لا يحصون وكان يفتى برأي مالك... وكان يحيى مع إمامته ودينه مكيناً عند الأمراء معظماً وعفيفاً عن الولايات متنزهاً جلت درجته عن القضاء؛ فكان أعلى قدراً من القضاء عند ولاة الأمر هناك لزهده في القضاء وامتناعه منه... وكانت وفاة يحيى بن يحيى في رجب لثمان بقين منه سنة أربع وثلاثين ومائتين وقيل في سنة ثلاث"[1].

3 ـ المقري:

أما المقرّي في كتابة (نفح الطيب)، فذكر في موضعين سبب تمسك أهل المغرب والأندلس بمذهب الإمام مالك، فأشار إلى يحيى بن يحيى الليثي حيث قال: "وانتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار، وتفقه به جماعة لا يحصون عدداً"[2]. وقال في موضع آخر عن سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس والمغرب: "واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي، وأهل الشام منذ أول الفتح، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل – وهو ثالث الخلفاء بالأندلس من الأمويين – انتقلت الفتوى

---

[1] ينظر: الضبي: أبو جعفر يحيى، " بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس "، الناشر: دار الكاتب العربي – القاهرة، 1967 م ص294 ، وص512، بتصرف.

[2] المقري: شهاب الدين التلمساني، " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، ت: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ط: 1، 1997 ،ج2، ص10

إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً، بل والمغرب، وذلك برأي الحكم واختياره، واختلفوا في السبب المقتضي لذلك، فذهب الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ ، فلما رجعوا إلى الأندلس؛ وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره، فعظموه كما قدمنا ذلك، وقيل:إن الإمام مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته، فأعجبت مالكاً لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية، وكابد ـ أي الإمام مالك ـ لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ، فقال الإمام مالك ـ τ ـ عنه لذلك المخبر: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاماً هذا معناه، فنميت المسألة إلى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي، والله تعالى أعلم"[1].

4 ـ ابن خلدون:

أما العلامة ابن خلدون فيذكر في المقدمة سببين رئيسين لتمسك أهل المغرب والأندلس بمذهب الإمام مالك، وهما السفر إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ وهي القريبة من بلاد العلم في المشرق كدمشق والعراق وغيرها بالنسبة للمغاربة، والسب الثاني أن أهل المغرب والأندلس كانت الغالب عليهم البداوة، وهي المناسبة لتمسكهم بمذهب مالك على غيره من المذاهب، عكس مصر والمشرق العربي والتي كانت تغلب عليه الحضارة، وهي المناسبة لمذهب الشافعي والحنفي والحنبلي، فقال بهذا الصدد: "وأمّا مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فاختصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في

[1] المصدر نفسه، ج3، ص230

غيرهم إلّا أنّهم لم يقلّدوا غيره إلّا في القليل؛ لما أنّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم؛ ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلّدوه دون غيره ممّن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكيّ غضّا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب. ولمّا صار مذهب كلّ إمام علما مخصوصا عند أهل مذهبه، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس، فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقرّرة من مذاهب إمامهم... وأهل المغرب جميعا مقلّدون لمالك ـ رحمه الله ـ"[1].

ثالثاً: أبرز علماء المنطقة في المذهب المالكي

برز في منطقة المغرب العربي والأندلس علماء أجلاء؛ وظهرت مؤلفات عديدة في المذهب المالكي يصعب حصرها ووصلنا بعضها والبعض الآخر في عداد المفقود، وكُتب لأمهات الكتب المؤلفة قديماً في المذهب؛ الذيوع والانتشار، وتدرس إلى يومنا هذا ويرجع لها في معظم المسائل الفقهية منها مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومتن ابن عاشر وغيرها، ونحاول التطرق في هذا البحث الموجز إلى أغلبها، مع ذكر العلماء الذين يرجع لهم الفضل في إخراجها للوجود، ومن تتلمذ منهم للإمام مالك مباشرة أو بواسطة.

أ ـ أهم تلاميذ الإمام مالك من المنطقة:

---

[1] ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:1، 1408 هـ - 1988 م، ص568

يوجد في منطقة المغرب العربي والأندلس علماء أجلاء تتلمذوا مباشرة للإمام مالك بدون واسطة، وتلقوا عنه العلم في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ ونذكر أشهرهم، مرتبين على تاريخ وفاتهم، وهم كالتالي:

1 ـ ابن فروخ: أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي فقيه القيروان في وقته، مولده بالأندلس سنة 115هـ، ثم انتقل إلى أفريقية، فسكن القيروان وأوطنها، ثم رحل إلى المشرق فلقي جماعة من العلماء والمحدثين كعبد الملك بن جريج، والأعمش والثوري ومالك بن أنس، وأبي حنيفة وغيرهم، فسمع منهم وتفقه بهم، وكان اعتماده في الحديث والفقه على مالك بن أنس وبصحبته أشتهر، وبه تفقه، لكنه كان يميل إلى النظر والاستدلال، فربما مال إلى قول أهل العراق فيما تبين له منه الصواب، ثم انصرف إلى أفريقية فأقام بالقيروان يعلم الناس العلم ويحدثهم فانتفع به خلق، ثم رحل ثانية، وأتى مصر فمات بها سنة في سنة 175هـ[1].

2 ـ شقران: هو أبو علي شقران بن علي القيرواني، كان ثقة مأموناً مجاب الدعوة عالماً بالفرائض له كتاب فيه، من أهل الفضل والدين والاجتهاد روى عنه سحنون وعون بن يوسف وأبو الفيض ثوبان المعروف بذي النون، توفي شقران سنة 186 هـ بالقيروان[2].

3 ـ شبطون: أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن القرطبي المعروف بشبطون الإمام الحافظ المتفنن الجامع بين الزهد والورع فقيه الأندلس، سمع من مالك

---

[1] القاضي عياض: أبو الفضل اليحصبي، " ترتيب المدارك وتقريب المسالك "، المحقق: سعيد أحمد أعراب 1981-1983م، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى، ج3، ص112

[2] مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "،علق عليه: عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، ج1، ص91

الموطأ، وله عنه كتاب في الفتوى معروف بسماع زياد، روى عن الليث بن سعد وابن عيينة وعبد الله بن نافع المدني وجماعة، وهو أول من أدخل الأندلس الموطأ متفقهاً بالسماع، وعنه أخذ يحيى بن يحيى وغيره، مات سنة 193 هـ[1].

4 ـ أسد بن الفرات بن سنان: مولى بني سليم بن قيس، كنيته أبو عبد الله أصله من نيسابور وولد بحران من ديار أبي بكر، قدم أبوه وأمه حامل به ثم تعلم القرآن ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس فلزمه وتعلم منه وتفقه به ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك موطأه وغيره ثم ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وأسد بن عمرو وكتب عن هشيم ويحيى بن أبي زائدة وأبي بكر بن عياش وغيرهم وأخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك وتفقه أسد أيضاً بأصحاب أبي حنيفة. قال سحنون: عليكم بالمدونة فإنها كلام رجل صالح ورأيه، وكانت وفاة أسد في حصار سرقوسة من غزوة صقلية وهو أمير الجيش وقاضيه؛ سنة 213هـ، وقيل أربع عشرة وقيل سنة سبع عشرة[2].

ب: أعلام المنطقة في المذهب المالكي

ظهر في منطقة المغرب العربي والأندلس على مر التاريخ أعلام كبار في المذهب المالكي، خدموا المذهب بالكتب والمؤلفات والمتون الجليلة والنافعة ونذكر بعضهم على سبيل الاختصار، ونرتبهم حسب تاريخ وفاتهم، وهم كالتالي:

1 ـ سحنون: أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني، أصله من حمص اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، الفقيه الحافظ العابد والورع الزاهد، الإمام العالم الجليل المتفق على فضله وإمامته،

---

[1] المصدر نفسه، ج1، ص94

[2] ابن فرحون: برهان الدين اليعمري، " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ج1، ص306

أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب، انتهت إليه الرئاسة في العلم وعليه المعول في المشكلات وإليه الرحلة ومدونته عليها الاعتماد في المذهب، وكانت وفاته سنة 240 هـ[1].

2 ـ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني: فقيه من أعيان القيروان مولده ومنشأه ووفاته بها، كان إمام المالكية فى عصره يلقب بقطب المذهب وبمالك الصغير، وله: (متن الرسالة في الفقه المالكي)، وكانت تلقب: "بباكورة السعد وبزبدة المذهب" لأنها أول مختصر ظهر في المذهب المالكي، وترجمة لعدة لغات في عصرنا ، وترجمته عالية وشهرته تغني عن التعريف به، توفي سنة 386هـ[2].

3 ـ ابن رشد: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المالكي يكنى أبا الوليد، قرطبي زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات بصيراً بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية، كثير التصانيف، ألف كتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلداً، وكانت وفاته سنة 520هـ[3].

4 ـ ابن العربي: محمد بن عبدالله بن محمد المعافري، أبو بكر ابن العربي. إمام من أئمة المالكية، وهو فقيه محدِّث مفسر أصولي أديب متكلِّم، كان أقرب إلى الاجتهاد منه إلى التقليد، ولد بأشبيليا وتلقى القراءات على قرائها، وأخذ العلم عن أبيه أبي محمد الفقيه وغيره من علماء الأندلس، ثم رحل إلى

---

[1] مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "، ج1، ص105

[2] المصدر نفسه، ج1، ص144

[3] ابن فرحون: برهان الدين اليعمري، " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ج2، ص250

المشرق مع أبيه فأخذ العلم عن الخولاني، والمازري، وأبي الحسن الخلعي، وأبي نصر المقدسيّ وأبي سعيد الزنجاني، وأبي حامد الغزالي، له مؤلفات كثيرة منها: كتاب الخلافيات؛ كتاب الإنصاف؛ المحصول في أصول الفقه؛ عارضة الأحوذي في شرح الترمذي؛ القبس في شرح موطأ مالك بن أنس؛ ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك؛ أحكام القرآن؛ مشكل الكتاب والسنة؛ الناسخ والمنسوخ؛ قانون التأويل؛ الأمل الأقصى في أسماء الله الحسنى؛ تبيين الصحيح في تعيين الذبيح؛ التوسط في معرفة صحة الاعتقاد؛ العواصم من القواصم، ولد سنة 468 هـ و توفي بمراكش سنة 543هـ[1].

5 ـ ابن رشد الحفيد: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد الشهير بالحفيد، أبو الوليد: الفيلسوف، من أهل قرطبة وقاضي الجماعة بها وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية ودرس الفقه الأصول وعلم الكلام ولم ينشأ بالأندلس مثله: كمالاً وعلماً وفضلاً، وله تآليف جليلة الفائدة منها كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه ذكر فيه أسباب الخلاف وعلل ووجه فأفاد وأمتع به ولا يعلم في وقته أنفع منه ولا أحسن سياقاً. وتوفي سنة 595هـ، ومولده سنة 520هـ قبل وفاة القاضي جده أبي الوليد بن رشد بشهر[2].

6 ـ ابن عاشر: عبد الواحد بن أحمد الأنصاري، شيخ المذهب، صاحب المنظومة المشهورة باسمه، سماها (المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) مطبوع متداول في المنطقة، ويدرس في الزوايا والكتاتيب، وهو كتاب

---

[1] ينظر في ترجمته: مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "، ج1، ص199

[2] ابن فرحون: برهان الدين اليعمري، " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ج2، ص259

مختصر مفيد في العقيدة والفقه والعبادات، وله فتح المنان، وتنبيه الخلان كلاهما في رسم القرآن، توفى سنة 765هـ[1].

7 ـ المواق: أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري الشهير بالمَوَّاق الأندلسي الغرناطي عالمها وصالحها وشيخها ومفتيها الإمام العلامة الصالح الحافظ المحقق القدوة الحجة، مفتي الحضرة وخطيبها وآخر الأئمة بها، وله تآليف كثيرة منها شرحاه على مختصر خليل الكبير، سماه التاج والإكليل والمختصر من مسودة وهما متقاربان في الجرم يزيد كل على الآخر في بعض المواضع، نحا طريقًا انفرد به وهو الاقتصار على عزو مسائل الأصل ونقل فقهه من أصول المذهب بما يوافقه أو يخالفه من غير تعرض لألفاظه البتة بحيث إن لم يقف على نص مسألة خليل بيض لتلك القولة، وهما في غاية الجودة في تحرير النقول مع الاختصار البالغ، وكانت وفاته سنة 897هـ[2].

8 ـ زروق: أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق، فقيه محدث صوفي، من أهل فاس (بالمغرب) تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف له مؤلفات كثيرة، من بينها تعليق على البخاري وشرحان على الرسالة وشرح إرشاد ابن عسكر وشرح مختصر خليل والقرطبية والوغليسية والغافقية وشرح العقيدة القدسية للغزالي وشرح الحقائق والدقائق للمقري، وتوفي سنة 899 هـ[3].

---

[1] ينظر في ترجمته: مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "، ج1، ص98

[2] التكروري: أحمد بابا التنبكتي، " نيل الابتهاج بتطريز الديباج "، ت: الدكتور عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، ط:2، 2000 م،ص563

[3] ينظر في ترجمته: مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "، ج1، ص387

9 ـ الحطاب: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي، من علماء المتصوفين. أصله من المغرب، ولد واشتهر بمكة، ومات في طرابلس الغرب، من كتبه (قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين) في الأصول، و (تحرير الكلام في مسائل الالتزام) و (هداية السالك المحتاج) في مناسك الحج، و(تفريح القلوب بالخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب) و (مواهب الجليل في شرح مختصر خليل)، توفي سنة 954 هـ[1].

رابعاً: التعصب لمذهب مالك في المنطقة

كان التعصب لمذهب الإمام مالك في بلاد المغرب والأندلس قد بلغ أوجه على مر العصور التاريخية، فقد جاء في كتاب (التنبيه على مبادئ التوجيه) قوله: "أما وضع الفقه، فإن المغرب والأندلس يُعَدَّان من البلدان القليلة التي عرفت وحدة المذهب الفقهي؛ فقد وصل إلى المغاربة في بداية أمرهم مذهب الإمام الأوزاعي، ومذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، لكن سرعان ما تخلصوا منهما وتمسكوا بالمذهب المالكي، وآثروه على غيره من المذاهب، وتكونت له في نفوسهم منزلة عظيمة حتى عدُّوا من خالفه جديرًا بالعقوبة، فقد جاء في بعض مكاتبات المستنصر ما نصه: "من خالف مذهب مالك بالفتوى وبلغنا خبره أنزلنا به من النكال ما يستحقه، وجعلناه عبرة لغيره. فقد اختبرتُ فوجدت أن مذهب مالك وأصحابه أفضل المذاهب، ولم أر في أصحابه ولا في من تقلد بمذهبه غير معتقد للسنة والجماعة. فليتمسك الناس بهذا، وليُنهوا أشد النهي عن تركه. ففي العمل بمذهبه جميع النجاة""[2] ، ولعل هذا التصرف ومثله أدى إلى التعصب

---

[1] المصدر نفسه، ج1، ص404

[2] ابن بشير: أبو الطاهر المهدوي، " التنبيه على مبادئ التوجيه "، ت: الدكتور محمد بلحسان، دار ابن حزم، بيروت، ط:1، 1428 هـ - 2007 م، ج1، ص39

الممقوت فاكتوى به كثير من العلماء الذين لم يجدوا بُدًا من مواجهته، وأذكر هنا على سبيل المثال موقف ابن حزم الذي واجه هذا الموقف بصلابة وعناد. ومن بين أقواله في هذا الشأن، ما ذكره صاحب (نيل الابتهاج) حيث قال: "قال ابن حزم: قد وصل أهل الأندلس في تقليد مالك حتى يعرضوا كلامه تعالى وكلام رسوله على مذهب إمامهم، فإن وافقاه قبلوهما وإلا طرحوهما وأخذوا بقول صاحبهم، مع أنه غير معصوم. ولا نعلم بعد الكفر بالله معصية أعظم من هذا""[1]

ونختم هذه المسألة بما ذكره صاحب (الاستقصا) في سبب انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس، فهناك الكثير من الكلام الذي يجب أن يقال عنه، فقد أُعدت ملتقيات علمية ورسائل ماجستير ودكتوراه في هذا الشأن، ولكن المقام في هذه الدراسة لا يتسع لذلك، قال السلاوي: "قال عياض في المدارك: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب أربعمائة سنة، فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديما بمدينة فاس وبالأندلس، وكذا ظهر بالأندلس أيضا مذهب عبد الرحمن الأوزاعي من أهل الشام، واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب الإمام مالك بن أنس الذي هو مذهب السلف من أهل الحجاز، فقال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة ما نصه: "كان مذهب أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن". قلت: كان المعز هذا وأسلافه من

[1] التكروري: أحمد بابا التنبكتي، " نيل الابتهاج بتطريز الديباج "، ص 294

صنهاجة بإفريقية على مذهب الرافضة من الشيعة؛ أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة، وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطارت بدعتهم في أقطار المغرب كله، فلما أفضى الأمر إلى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من إفريقية ودعا لبني العباس؛ وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وإمام دار الهجرة، هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس؛ ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة؛ وكذا ظهر بإفريقية ظهوراً بينا قبل وجود المغرب بكثير؛ بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب، وذلك على يد أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون وغيرهما من أئمة المغاربة، ثم لما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك، وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم: ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم؛ ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن نصره المعز المذكور جزاه الله خيراً، قالوا: وكان ظهوره بالأندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون فهو أول من أدخله الأندلس؛ وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام لمكان الدولة الأموية منه؛ فلما ظهر مالك ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه بأقطار الأرض، رحل إليه جماعة من أهل الأندلس والمغرب؛ كان من أمثلهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل، فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكره بالأندلس؛ فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها، وكان رائد الجماعة في ذلك هو شبطون كما قلنا، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ المغرب؛ أتى به مكملاً متقناً، فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي، ثم دخل بعد ذلك إلى مالك فقرأه عليه وعاد إلى الأندلس فتمّم ما كان قد بقي من شهرة المذهب المالكي.

قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان؛ مذهب أبي حنيفة؛ فإنه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، ومذهب مالك عندنا بالأندلس؛ فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم، على أن يحيى لم يل قضاء قطّ ولا أجاب إليه وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم.

ورأيت في بعض التآليف في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حُجَّاج المغرب والأندلس قدموا على مالك ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له: إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زيّن حرمنا بمثله، فنقم عليه بنو العباس لهذه المقالة؛ وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسُرَّ بها وجمع الناس على مذهبه، فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم"[1].

<u>خاتمة:</u>

إن تمسك أهل المغرب والأندلس بالمذهب المالكي، توقف عندها العلماء في القديم والحديث، وذكروا أسباب عديدة في سر تمسك المنطقة بالمذهب المالكي منذ القدم وإلى يومنا هذا، وقد ذكرنا أغلبها بشهادة المؤرخين والعلماء، وخلاصة القول في المسألة: إنها خلافية كما قال السلاوي، فالأسباب متعددة، ولكن الواقع يشهد بذلك، فمذهب الإمام مالك منتشر في كل دول المغرب العربي

[1] السلاوي: شهاب الدين الناصري، " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، المحقق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط: 1956م. ج1، ص196

كليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والبلاد الإفريقية؛ وكل قوانين الأسرة والحج وغيرها في هذه الدول تنبني عليه، والمشرق العربي يحوي بقية المذاهب الأخرى، فالحنبلي في دول الخليج، والشافعي في مصر والأردن، والحنفي في العراق وبقية العالم الإسلامي، ولكن التعصب المذهبي انتفى في عصرنا الحاضر، وهناك من يأخذ برأي المذهب الذي يوافقه في أي مسألة عرضت له، مع الإشارة إلى تمسك بعض حكومات المنطقة خصوصاً في المغرب والجزائر بالتمسك الفقهي وإلزام الرعية بالمذهب المالكي وعدم الخروج عنه إلا للضرورة القصوى في أحكام الزواج والحج وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

1 ـ ابن بشير: أبو الطاهر المهدوي، " التنبيه على مبادئ التوجيه "، ت: الدكتور محمد بلحسان، دار ابن حزم، بيروت، ط:1، 1428 هـ – 2007 م.

2 ـ التكروري: أحمد بابا التنبكتي، " نيل الابتهاج بتطريز الديباج "، ت: الدكتور عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، ط:2، 2000 م.

3 ـ الحَمِيدي: محمد بن فتوح الميورقي، "جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس"، الناشر: الدار المصرية للتأليف والنشر، عام النشر: 1966 م – القاهرة.

4 ـ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:1، 1408هـ – 1988 م.

5 ـ السلاوي: شهاب الدين الناصري، " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، المحقق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط: 1956م.

6 ـ الضبي: أبو جعفر يحيى، " بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس "، الناشر: دار الكاتب العربي – القاهرة، 1967 م.

7 ـ ابن فرحون: برهان الدين اليعمري، " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، لناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

8 ـ قاسم: علي سعد، " جمهرة تراجم الفقهاء المالكية "، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الطبعة: الأولى، 1423 هـ – 2002 م.

9 ـ القاضي عياض: أبو الفضل اليحصبي، " ترتيب المدارك وتقريب المسالك "، المحقق: سعيد أحمد أعراب 1981–1983م، الناشر: مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى.

10 ـ مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "،علق عليه: عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ – 2003 م.

11 ـ المقري: شهاب الدين التلمساني، " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، ت: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ط: 1، 1997م.